المسألة الفلسطينية في الادب العربي الحديث

صالح ج. الطعمة

ان قضية فلسطين لا تجاريها اية قضية أخرى كمصدر للمواضيع الادبية في الادب العربي الحديث . وطيلة ما ينيف على خمسين عاما ، أي منذ صدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، استأثرت فلسطين بانتباه عدد متزايد من الشعراء والمسرحيين والروائيين والنقاد الادبيين وغيرهم من الكتاب(١) . لكن المرء يفتش عبثا عن محاولات غربية جدية تهدف الى دراسة هذا المظهر في الادب العربي . حتى ان تلك المختارات او الترجمات القليلة ، والتي اختارها وأعدها الباحثون البريطانيون والاميركيون عن الاعمال الادبية العربية خلال العشرين سنة الماضية ، يبدو عليها التملص الكلي تقريبا من القصائد والقصص والمسرحيات المتصلة بالمسألة الفلسطينية(٢) . وهي بذلك لا تقصر عن تحقيق نظرة متزنة الى الادب العربي الحديث فحسب ، بل تفشل في تطوير تبصر لعقل الشعب العربي وروحه ، من خلال تصدي هذا الشعب للتغلب على واحدة من اكبر مشكلاته الحديثة . فالقيمة العائدة لمثل هذا المنحى الادبي ليست بحاجة الى مزيد من التوكيد . ومع ذلك ، ما فتىء الكثيرون من دارسي العالم العربي يشعرون برغبة تدفعهم لالتماس الشيء الذي صار مألوفا : في دراسة الادب العربي كأداة نحو فهم أفضل للعالم الذي يعكسه هذا الادب . ولفترة حديثة العهد فقط شعر احد كبار المستشرقين الايطاليين — اومبرتو ريتزيتانو — بالحاجة الى التشديد على هذه النقطة . حيث قال : « ليس باستطاعة اي عمل من اعمال البحث في التاريخ القديم والحديث للشعوب العربية ، ولا أية دراسة عن السياسة الغربية في الشرق الادنى ، ادعاء الشمول والاستنفاد فيما لو أهمل مؤلفها معرفة روح هذه الشعوب ، وتغافل عن الحدود والنواحي المتصلة بما يدعى « وجدان الجماهير » — هذا الوجدان الذي يحاول الكتاب تقديمه لنا من خلال رواياتهم وقصائدهم ومسرحياتهم . ان هذا النتاج الادبي هو المعين الحقيقي والثمين للتاريخ »(٣) .

ودراسة الادب العربي الذي يدور حول النزاع الفلسطيني تتكشف عن عدد من الخصائص أو الاتجاهات العامة . فمن زاوية الانواع الادبية ، يتقدم عليها الشعر باعتباره الوسيط الاوسع انتشارا . ليس لان الشعر كان على مدى قرون طويلة بمثابة النوع الادبي الاول في العربية فحسب ، بل ولانه يمثل الاداة الاشد فعالية للوصول الى جمهور أوسع ولايقاظ الرأي العام أو تكوينه . وكما قال الناقد الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا : « يمكن ادانة الشعر باعتباره لعبة ضعيفة للغاية أمام البنادق ، لكنه في الواقع الفعلي غالبا ما كان يضاهي الديناميت من حيث الجودة . لقد أعطى الاتجاه لغضب وآلام أمة بأسرها . وقام على بلورة المواقف السياسية في سطور معبرة حفظها الشيب والشبان ، لكي تزيد في صلابة المقاومة الشعبية وتزودها بالشعارات الحماسية »(٤) . لذا ليس هناك ما يبعث على الدهشة في الملاحظة بأن الكثير من هذا الشعر هو خطابي

---

* وضع هذا البحث ، في الاصل ، باللغة الانجليزية . ويرغب كاتبه الاعراب عن تقديره لجامعة انديانا التي قدمت له منحة أتاحت له القيام بدراسة عامة للادب العربي الحديث .